# القفص

بقلم : زهير البيومي

في ليلة مقمرة من ليالي الصيف ، بينما كانت الطيور تغرد على غصون الاشجار في المزارع المجاورة لمنزل السيد / احمد ، وبينما هو جالس على سرير المرض دخلت عليه زوجته التي كانت قد ذهبت لتعد له العشاء ، وقد اصبحت أساريرها عن وجود شيء ما تخفيه ، وكذلك كانت الاطباق ترتعش في يديها ، فاسرعت بوضعها امامه وجلست الى جواره مستندة برأسها الى كتفه ثم قالت وقد اخذتها بالبكاء

ـ أحمد .. فلتذهب الى سامية كي ترى ما بها .

ورمقها أحمد من فوق نظارته نظرة مخيفة وأخذ يتناول طعامه دون أن يرفع رأسه اليها ، بينما استجابت هي من جواره مسرعة نحو المقعد المواجه وتكومت فيه ، وظلت سامية للرحمة ، وفجأة تغيرت سحنتها بفعل ما كان يعمل في نفسها من ألم وغيظ ، ثم قالت في بطء وهي تضغط على أسنانها :

ـ رحمة .. أنتما الاثنان .. لم يكن ذنبي أن تزوجت رجلا مثلك .. وكذلك لم يكن ذنبي انني أحببت بنتا كهذه .

ونهض أحمد فجأة تاركا طعامه وقد علت شفتيه ابتسامة خفيفة ، وخلع نظارته ووضعها في حافظتها ، ثم مرر يده على جديه يتحسس دقنه ثم أخذ يتأملها في المرآة المعلقة الى جوار الفراش كان وجهه يزداد سماحة كلما وقعت عينه على شعرة بيضاء .. ولذا كان يحاول دائما ارضاء الناس جميعا كلما أسرعت هذه الشعيرات البيض في رأسها على جديه لتضفي عليهما نورا من المهابة والوقار .. ، وظل هكذا يتأمل وجهه في المرآة ، ثم قال فجأة :

ـ سنذهب اليها .. يا نعيمة .. هيا بنا .

ونهضت الزوجة في عجله متجهة الى خارج الغرفة ، ولكنها وقفت فجأة لتقول في صوت خفيض كأنها تتوسل اليه :

ـ لكن والدتي لا تشتهيها يا احمد .. انت تعرف مخها .. حتى لا تعاود الانبجار فقد لا أستطيع انقاذها في هذه المرة .

كانت سامية تؤثر المرأة دائما خاصة بعد أن اضطرت أن ترضخ لأمر والدها لانها كانت لا تزال قاصرا فتركت حبيبها الذي حاولت أن تتزوجه على غير رغبة من والدها ، ولذلك انتحت من الحجرة الوحيدة التي في الطابق العلوي مقرا لها .

وكان درج السلم الخشبي المؤدي الى

نظرة سامية بين تحب أقدام الام والأب الذى انحنى قليلا حتى يتفادى اصطدام رأسه بالطابق العلوى ، ثم التفت الى زوجته التى كانت ترفل فى ثوبها الابيض الملائكى وقال وقد قطب حاجبيه

ـ انى اعرف بنتى جيدا ·· واعرف انه لا جدوى من مناقشتها فى هذا الأمر ·

ولكن الزوجة أخذت ترمق البنه بنظرة كلها استعطاف ·· ثم أخذت يده دون أن تنطق ببنت شفة الى حجرة ابنتها التى أسرعت تقول فى عصبية وقد أجهشت بالبكاء

ـ لماذا أتيتم الى غرفتى ·· انى لا أريدكم ، لقد حطمتمونى ·

وحاولت الأم أن تتكلم ولكنها لم تستطع ، وأجهشت باكية هى الاخرى بصوت مرتفع بينما أخذت الجدران ترتد رجع نشيجها ، وقال الأب وهو يحاول جاهدا أن يرتفق من خشونة صوته ، وأن يختار من الكلمات أعذبها وأحبها وقعا عملا بوصية زوجته

ـ ما بك ·· أخبرينى يا ابنتى العزيزة ·· سامية ·· الا يستحق منك الرحمة والطاعة ·· هل هناك قلب أحنى عليك من قلب أبيك وأمك ·· انظرى الى أمك المسكينة بعين الرحمة ودعك منى انا ·· حاولى ان تشعرى بما تعانيه من الم وحسرة ، لقد أصبحت كل آمالنا فيك انت بعد ان مات أخوك وأصبحت انت كل ما لنا فى هذه الدنيا ·

وسكت الأب برهة ينتظر أن تعلق ابنته بكلمة ، فأحد يعلم بدقه ، وطال الصمت ، ولم تعلق ابنته بكلمة واحدة فخرج عن شعوره وانفجر صائحا

ـ لقد رفضت الروح الطيب الذى احضرته لك ·· ولم اقل شيئا ، وتركت « القنطرة » بعد أن اصبحت سيرتنا تلوكها ألسنة الناس جميعا ، ولم يعد لهم من قصة تشغلهم غير قصة ابنة « الغوغداد » والولد « الهلعوت » الذى أحبته وهو لم يحصل بعد على الثانوية العامة

قال هذه العبارة الأخيرة وكأنما حاول أن يستثير ابنته لتتكلم ·· لتقول شيئا ·· أى شىء ، ولكنها لم تفعل فاستمر يقول على غير رغبة منه

ـ اخبرينى ما الذى تحبينه فيه ·· لتعلمى جيدا أن « لا حب بلا خبز » ·· هل يستطيع أن يوفر لك حياة كهذه التى نحييها الآن ، هل يستطيع أن يشترى لك سيارة كتلك التى جعلتها تحت امرتك ؟ ·· بالطبع لا ، لقد حاولت ان تتزوجيه وأثنيتك عن عزمك فى رفق بعد أن اقنعتك بأن القانون يقف حائلا دون ما تريدين ·· واذا فكرت قليلا فسوف يتبين لك أن العقل يقف أيضا الى جانب القانون ·· فكرى قليلا يا ابنتى ، وادلى لنا برأيك واخبرينا بما تريدين ·· اللهم الا اذا كنت تريدين الذهاب الى « القنطرة » ·

وضحك الأب وحدثت المحجرة بكلمات سامية هذه المرة فقالت

ـ لا شأن لك « بالقنطرة » ··· وكذلك لا شأن لك بى ، فليس بى شىء كما أنى لا أريد شيئا ·· اتركانى لحالى ·· أريد أن أنام ·

وأراد الأب أن ينهى النقاش فى هذا الموضوع بالرغم من أن ابنته لم تتناول

عن موقعها ولم تعصم عما تريد ، وذلك لأن الليل كان قد انتصف ، ولأنه كان يعرف جيدا أن النقاش معها غير مجد كما قال لزوجته قبل أن يصعدا الى الطابق العلوي ولذا صاح بها

ـ هيا بنا يا نعيمة .. أقول لك هيا بنا ، هذه الفتاة ليس عندها رحمة ، وليس لديها خير في أبيها أو أمها ، لقد سامحتها بعد أن حاولت القصاص على سبعتي حتى حاولت الهرب والزواج من ذلك « الصعلوك » الذي تسميه حبيبها لقد أعطيتها كل فرصة لكي تفكر ، وتكفر عن خطئها .. لم اضرب عليها لعباتي . . ولم امنع عنها النقود كما كان يجب أن يفعل أي والد في مكاني ، ومع ذلك فلم تنصح .. ولم تعتبر بل أصبحت أدنى .. وتجردت من كل احساس بالمسئولية .. اذن دعيها تركب راسها .. ولتتحمل نتائج تصرفها . هيا بنا . ولم يأت هذا الصباح كله بأي نتيجة .. ولم يطفر برد من ابنته التي كانت قد اغمضت عينيها متظاهرة بالنوم ، فاخذ أحمد زوجته من يدها وأغلق الباب ، ثم أخذا يهبطان درج السلم بينما أخذت الزوجة تدفع عن نفسها تهمة بتدليل ابنتها وتلقي بها على كاهل زوجها

ـ كل ذلك من عواقب تدليل لها أيها السيد ، عودتها على مناقشتك حتى في ادق الأمور .. والآن تحمل عواقب تربيتك وحدك ، ولا تلق بها على كاهل الآخرين .. لا تحاول أن تشركني في ذنب ارتكبته انت .. اي محلوقة نعيسة أنا .

وبكت الزوجة كثيرا وامتلأت عيناها بالدموع حتى انها لم تستطع ان تتبين موقع قدميها من درج السلم ، فانزلقت احدى قدميها ووقعت الأم على الأرض ، واسرع زوجها الكهل فحملها بين يديه وسار نحو حجرتها بينما كانت تنظر اليه خلل الدمع بعين العطف والشفقة .

منذ ذلك اليوم كف السيد أحمد عن التحدث الى ابنته التي لم تلاحظ شيئا من ذلك ، وان تطرق الى ذهنها فهي لا تأبه له ، فهي في شغل شاغل عن كل شيء .. اللهم الا ذلك الحلم المنور الذهبي الذي لا يفتأ يداعب خيالها بين الحين والآخر .. هي لا تفكر الا في ذلك اليوم الذي يجمعها وحبيبها .. يوم تملك بين يديها كل زمامها فتستطيع ان تقول « سأفعل هذا ، وان أفعل ذلك » ، وظلت هكذا معتكفة في حجرتها كعادتها منذ اختلفت مع والديها ، تدرع الحجرة ذهابا وجيئة أو ترقد في سريرها ، وهي لا تكف عن البكاء وتكفكف عبراتها بالمنديل وتدعك عينيها بظهر يديها بنفس الطريقة التي كانت تفعلها حينما كانت صغيرة اذا ما كانت تريد شراء لعبة ، اما الأم الحائرة بين الوالد وابنته ، فقد نفضت يدها من هذا الأمر تماما ولزمت الصمت

وذات صباح استيقظ الأب ليجد رسالة على مكتبه بخط ابنته وأخذ يتنقل ناظريه بين سطورها في سرعة ليتبين ما فيها .. وسرعان ما تراءت له الحقيقة واضحة جلية ... لم يكن يخطر على باله أن هذا اليوم .. هو يوم ميلادها الثامن عشر .. اليوم الذي يصبح فيه من حقها أن تفعل كل ما يبدو لها ... واحرق الخطاب محاولة منه أن يخفي

الأمر عن زوجته التي اصبحت طريحة الفراش . ولكن الأمر لم يكن ليحير ابدا . فقد أسرت الخادمة بما حدث الى الأم لم تكن تدري ما يدور حولها بعد أن اشتد عليها المرض .

اما السيد احمد فقد ابى الا ان تسير حياته في مجراها العادي ، فكان يرتدي ملابسه في الصباح الباكر كل يوم ليذهب الى محل عمله في وقته المعتاد محاولة منه لان يبدو طبيعيا أمام زملائه ومرءوسيه الذين سرعان ما انتشر الخبر بينهم . بعد ان تسرب النبأ عن طريق الخدم بعد عدة ايام ، وحاولوا أن يجدوا اثرا لذلك على وجهه او في صوته . ولكن كيف السبيل الى ذلك وهو الرجل العسكري الصلب الارادة ، القوي الشكيمة . فلم تفصح أساريره عن شيء من مكنون صدره . ولم يتقطب جبينه ، بل كان على العكس من ذلك تماما . كان وجهه جامدا .. خلوا من كل تعبير . كما كان صوته قويا اجش كعادته .. بل لعله كان يسعى جاهدا أن يجعله أقوى مما كان . بينما أخذ يلقي بالأوامر بسمة وبسرة ، كان موظفو المصلحة يكرهون فيه نزوعه المستمر للجد ، وعزوفه عن المزاح والضحك ، كان جميعهم يتمنون من صميم قلوبهم ان يروه يوما كسير النفس . وظنوا ان اليوم قد جاء حينما سمعوا بذلك الخبر .. ولكنه خيب ظنهم . كان يشعر بنظراتهم ترحف على وجهه .. تفتش عن أي اثر للحزن ، وتحاول ان تخترق رأسه الكبير لتقف على ما يدور في خلده ، وتحاول أن تعد الى قلبه لترى ما به من اضطراب ، ولكنه كان من ذلك كله بمثابة الحصن المنيع .. كان يمشي كعادته منتصب القامة مرفوع الرأس ، كله كبرياء وصلف ، لم يكن يهمه في هذه اللحظات شيء من أمر ابنته بقدر ما كان يهمه الابقاء على هيبته ووقاره أمام الموظفين .

وعلى هذه الحال صارت حياة السيد أحمد منذ اختفت ابنته التي لم يحاول أن يبحث عنها . يذهب في الصباح الى عمله ثم يعود فيلقي نظرة على زوجته المريضة ، ثم يدخل الى حجرته فلا يخرج منها الا في الصباح التالي ، اللهم الا اذا خرج ليستقبل الطبيب الذي كان يعود زوجته المريضة لكي يعرف ما يتطلبه العلاج من دواء .

وذات يوم اذ هو داخل الى البيت تسلل الى سمعه صوت كان قد نسيه في غمرة الذهول الذي اعتراه بعد أن هجرت ابنته البيت ، فصعد أحمد الى الطابق العلوي حيث حجرة سامية حيث كان العصفوران اللذان اشترتهما لا يزالان في قفصهما يصيان أغنية حزينة من كآبة البيت .

كان هذان العصفوران وصورتها معلقة بنفس الغرفة بالاضافة الى منديل لا تزال به آثار الدمع هي كل ما خلفت سامية من آثار ، ولكنها كانت كافية لكي تثير الشجن ، وتشيع الحزن في البيت الصغير .

أحد الأب يحيل ناظريه في أنحاء الحجرة عن أي مخلفات أخرى ، ولكنه لم يجد شيئا ، فحمل ينظر الى القفص وأخذ يتصور العلاقة التي قد تنشأ عن وجود هذين العصفورين في قفص واحد ، أخذ يتصور الضوضاء التي يمكن أن تحدث في البيت اذا ما انجبا طيورا أخرى ، وعلى الفور أمر الخادمة الصغيرة بشراء لفة من السلك من أحد المحال المجاورة . وأخذ يصنع بها حاجزا في منتصف القفص ، ووضع كل عصفور في ناحية ، ثم اتجه ينظر الى صورتها المعلقة على الحائط المجاور ، فرآها عاصية مما فعل ، وقد انتشرت التراث في وجهها تماما كما كان يحدث لها كلما اغضبها ، وأخذ يتطلب بعد ذلك في احتقار الى المنضدة المجاورة حيث كان المنديل المبلل بالدمع ملقى هناك ، وقال لنفسه هكذا ستظل تبكي بقية عمرها ، ثم اتجه عائدا ادراجه ، ولكنه قبل أن يصل الى الباب تذكر انه قد رأى شيئا ما الى جوار المنديل ، وعاد فالتقط هذا الشيء ، كان هذا الشيء هو صورة ابنه الذي مات صغيرا -- كان صغير السن صغير البصر ، ضئيل الجسم ، ولكن عقله كان كبيرا ، ليته عاش وماتت هي -- كان مطيعا -- رؤيا !! لو انه عاش فانه ما كان ليرضى عن مثل هذا التصرف الاحمق الذي اتخذته أخته ، انني متأكد من ذلك فقد كان مثلي تماما --- أما هي كأنها تماما بعقلها مس من الجنون اسمه الحب » .

هكذا كان يقول الأب لنفسه حين وقع نظره على صورة ابنه الذي مات وهو لم يزل في عمر الورد ثم تبسم وهو لم يزل في عمر الورد ثم تبسم وهو يسير خارجا « لو أنه ظل على قيد الحياة، لما اختلف موقفه من أخته عن موقفي منها --- انني متأكد من ذلك -- كان رؤيا -- رحمك الله يا بني » .

صار الأب يلقي نظره كل يوم على حجرة سامية ويتامل أحوال العصفورين اللذين خلفتهما كانت تثور ثائرته كلما رأى العصفورة تحاول أن تخترق الحاجز الفاصل بينها وبين وليفها ، ويصبح متوعدا اياها كلما رأى منها ذلك « سامنع عنك الطعام -- والشراب » أما هي فكانت لا تعي وعيده ، أو لعلها كانت لا تابه له ، بينما استمرت في عملها جاهدة تنقر السلك ، وتحاول ان تدفع بجسدها الضئيل بين فتحاته الضيقة دون ان تفكر في جوع أو ظمأ ، ولشد ما كانت ثورة السيد أحمد حينما عاد من عمله ذات يوم ليجد الخادمة تضع الطعام والشراب للعصفورين ، وتحاول أن توسع فتحة للعصفورة لكي تعبر الى الجانب الآخر من القفص حتى لا يتسرب الشك الى صيدها انها نقلتها مباشرة الى الناحية الاخرى ، وصاح السيد بالخادمة :

ـ ايتها الملعونة -- تتآمرين معهم علي -- تكسرين أوامري -- كلكم خائنون اخرجي من بيتي =

وأسرع الرجل بتصيد الفتحة التى كانت العصفورة تحاول التسلل منها ولكنه عاد مكتئبا فى اليوم التالى بعد أن سمع أن ابنته قد انجبت بنتا وانها سعيدة فى حياتها من الروح الذى رفضه، ودخل على الفور ليجد العصفورين فى جهسة واحدة ، ولكن كان احدهما حيا فقط أما العصفورة فقد كانت راقدة فى أسفل القفص ، وقد ماتت بعد أن تكسر ريشها وجناحاها من الاصطدام المتواصل بين قضبان القفص ، وتأثر السيد أحمد وأسند رأسه الى القفص وهو يبكى ، ثم اتجه الى غرفته واخذ يكتب هذه البرقية :

« عزيزتى سامية .. حاولت أن أفصل العصفورين اللذين اشتريتهما ولكن العصفورة ضربت أروع مثل لى كيف يكون الحب حتى الموت ، سلامى الى زوجك واستنسك .. انتظرانى ، سوف احضر فى أول قطار »

وبعث السيد أحمد بهذه البرقية الى مكتب البرق ، وأخذ يعد العدة للسفر الى ابنته وزوجها ، ويرتدى ملابسه فى سرعة وبينما هو كذلك وصلته برقية مذيلة بامضاء زوج ابنته فقط أخذ يقرأها فى لهفة ولم يلبث أن خارت قواه حين وقع نظره على هذه العبارة « عصفورتى ضربت أروع مثل فى ذلك أيضا » .